التجربة الدينية بين البحث الأنطولوجي وواقع الإيديولوجيا

The experiment religious between ontological research and the reality of ideology

د.صافية مناد*

الإرسال:	2020/09/04	القبول:	2020/11/13	النشر:	2020/12/31

الملخص باللغة العربية:

إن التجارب الدينية متنوعة بمعارفها فهي تهتم بتفسير كل التجارب وتصنيفها والبحث في عمقها والكشف عن الحقيقي منها وتميز الزائف عنها، حينها يتم بناء العلاقة العضوية بين النص المقدس (التجربة الدينية) بالظمأ الأنطولوجي. فالتجربة الدينية في الفكر المعاصر لها وظيفة إجتماعية تتمثل في كل تجاربه الحفرية الجيولوجية وحتى الأركيولوجية، فيعتمد الكلام الجديد في مسائله المعاصرة على الإجتماع البشري أو مايسمى بعلم الإجتماع الدين على إختلاف أطره الفكرية الايديولوجية.

الكلمات المفتاحية: الانطولوجيا؛الايديولوجيا،الدين؛التراث؛الفكر.

ملخص باللغة الإنجليزية:

Abstract: The religious experience is diverse with its knowledge that is concerned with the interpretation of all experiences and their classification by searching and uncovering the true ones and distinguishing the false from them. Here, the organic relationship between the sacred text (the religious experience) and the ontological thirst is built. Religion gives contemporary speech a social function when it is embodied in all its geological and even archaeological excavation experiences, as new discourse in its contemporary

* - متحصلة على شهادة دكتوراه فلسفة ، التخصص فلسفة إسلامية وحضارة معاصرة، قسم الفلسفة، كلية العلوم الاجتماعية، الجامعة وهران2، مخبر الأبعاد، البريد الالكتروني [safi_a_488@hotmail.fr].

issues depends on human sociology or the so-called sociology of religion according to its different ideological intellectual frameworks.

Keywords: Thought; Ontology, ideology, religion, heritage.

مقدمة:

الوجود الإنساني يتحقق بفعل ثلاثية (التفكير والذات والمجتمع) والتي ترتبط مباشرة بالعقل وعلوم الإنسان والمجتمع، فلا يمكن أن يتحقق حيزا أنطولوجيا للإنسان دون فهم الدين، وليس هناك "فهم للدين خارج ذات الكائن البشري ورؤيته للعالم ومعادلات الواقع الذي يعيش فيه. وطالما فرضت معادلات الواقع على كل ديانة إنتاج نسخها المضادة، ولا يمكن أن تحمي الديانة نفسها من تزوير النسخ المضادة وتزييفها إلا بالكفّ عن إستبعاد العقل في فهم الدين وتفسير تمثلاته في حياة الفرد والمجتمع، وإعتماد العقل مرجعية في إختبار صحة معتقدات الديانة وقبولها، ومواكبتها لمعطيات العلوم والمعارف، وتوظيفها في إعادة إكتشاف ما تبدّد من معناها الروحي ورسالتها الأخلاقية"[1] فكيف يتمثل حضور التجربة الدينية في الاطار الأنطولوجي وماهي تبعاته الايديولوجية المستفية تاريخيا إلى الزمن المعاصر في كل مجالات الفكر والحياة الانسانية؟

1_التجربة الدينية والبعد الانطولوجي:

إنّ إهتمام بالتجارب الدينية وعلى إختلافها تجعل الإنسان على أرضية إرتواء الظمأ للمقدس وهو مايجعل الإلهي يتمثل للبشري تختلف فقط مستويات الإرتواء حسب قدرته على المثول في حضرة الله. حينها تمثل لدى الإنسان بصفة عامة وعلى علاقة بالواقع بما يسمى بالإيمان، الذي يشكل منبع الحياة الروحية وراحتها وحتى علاقتها بالواقع اليومي سواء على مستوى الفرد أو المجتمع فهو له حيثيات كبيرة وتأثيرات أكبر والتجربة الدينية تمثل البعد الأنطولوجي في الدين.

"فالتجربة الدينية تعني مواجهة الله وإدراك حضوره، والمثول في حضرته وتحسس هذا الحضور وتذوقه، فرؤياه هي نحو تجل وجودي للإلهي في البشري"[2]،

[1] _ عبد الجبار الرفاعي، الدين والإغتراب الميتافيزيقي ،مركز درسات فلسفة الدين،بغداد ،ط1 ،2018،ص ص 25،26

[2] _ عبد الجبار الرفاعي،الدين والظما الانطولوجي، مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد، ط3، 2018.،ص153

فالظمأ الأنطولوجي للمقدس "يجتاح كل كائن بشري، بوصف هذا الكائن يتعطش للإمتلاء بالوجود، كي يتخلص من الهشاشة، ويجعل حياته ممكنة في هذا العالم الغارق بالألم والأوجاع، وتكون له القدرة على العيش بأقل ما يمكن من المرارات والأحزان، ويخرج من حالة القلق إلى السكينة ومن اللامعنى إلى المعنى، ومن السوداوية إلى النور،"[1] فينبثق عن ذلك كل صور الإيجابية والسلبية عن الدين التي تعتبر جوهره وروحه وباطنه وعمقه، وهي ما تسمى بالتجربة الجوانية التي تكون غاطسة في الذات ومتماهية معها، وتقابلها الخارجية التي تكون عكسها أحيانا كما نشير عند بعض رجال الدين ما يمارس من طقوس وشعائر وباطنهم بعيد عن الله، فيتلون فهم الدين ويتأثر بفضاءات مختلفة عنه، فضلا عن ذلك نميز "بين الدين والتدين، الإيمان والتدين، الدين والحياة الروحية، تمثلات الدين الفردية والإجتماعة وجوهر الدين حين أتحدث عن الدين هنا" البعد الأنطولوجي الذي يتمثل في الإيمان، الحياة الروحية، والحياة الأخلاقية، جوهر الدين"[2].

لذلك يستعمل بعضهم الوسطية[3] للتخلص من مأزق الراهن للتفكير الديني في عالم الإسلام وتعد من المسكنات المؤقتة للعقل، "فنحتاج اليوم الى عملية تفطير جسورة تستأنف نصاب العقل في التفكير الديني،كي يفضح اللامعقول في فهم الدين، ويجري حفريات على التراث تخترق بنيته التحتية لتكتشف الروافد العميقة لتشكيله، وتتعرف على أنساقه المضمرة التي تعيد إنتاج مكوناته، ويفكك المعرفة الدينية المنتجة في سياقات الإستحواذ على السلطة السياسية والروحية والهيمنة على أشكال الثروة المادية والرمزية المختلفة، فالوسطية بمعناها الجديد ليست خيارا للخلاص"[4]، فمن يريد الإنتماء لحاضره له ذلك ومن يريد بقاء قيد إنتماء للماضي أيضا له ذلك وهو

[1]_ عبد الجبار الرفاعي،الدين والظمأ الانطولوجي، المرجع السابق،ص155

[2]_ ،المرجع نفسه ،ص164

[3] _ الوسطية :شاع هذا المصطلح أخيرا في الأدبيات الدينية في بلادنا بوصفه يحمل الى معنى قرآني ((وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيكُم شَهِيدًا)) ،لكنالمعنى القراني يشير الى ان الأمة المسلمة تمثل عقيدة لاتنسى الله كما فعلت الوثنيةنولا تنسى الانسان وطبيعته البشرية كما فعلت الرهبنة المسيحية ،ولاتنسى حاجات الانسان المعنوية نكما لا تنسى حاجاته المادية كما فعلت أديان وثقافات محلية معروفة لدى عرب الجزيرة،اما استعمال المصطلح فان مع الشيخ يوسف القرضاوي نكتاب كلمات في الوسطية الاسلامية ومعالمها ،الكويت المركز العالمي للوسطية 2007،وتحت عنوان صلتي بالوسطية ،للمزيد أنظر عبد الجبار الرفاعي ،الدين والاغتراب الميتافيزقي،ص27.

[4]_ عبد الجبار الرفاعي،الدين والاغتراب الميتافزيقي،المرجع السابق،ص28.

واضح لكلاهما دون حاجة إسقاط ذلك على نصوص الدينية والتراث، فذلك يحدث تشويه للفهم وإضطراب للرؤية الفكرية.

ففي الواقع المعاصر تجتاح الفكر الديني موجة تعصب تجعل من الإنسان في حالة تيه بين المقدس والمفسر والواقع والعالم، فيسقط في علم التمويه والخداع والإستغلال، "فاللامعنى يفضي إلى الضياع ولا أحسب أنّ هناك منبعا تستقي منه الروح البشرية المعنى أخصب من الدين، الدين هو المنهل لإرواء الظمأ الأنطولوجي، وهو المنبع لإثراء الحياة الروحية"[1]. لقد ينشأ الفهم الخاطئ للنص تصور عن الله تصورا لاهوتيا صراطيا أو مايسميه الرفاعي بلاهوت الإسترقاق، "وهذا اللاهوت بطبيعته ينسج شباكا معقدة لمختلف أنماط العبوديات التي تكبل حياة الشخص البشري، عبر إنتاج الإستبداد والنظام الأبوي العمودي في مختلف مستويات الإجتماع البشري، من العائلة والقبيلة إلى المدرسة والحزب والدولة"[2]، فهو هنا يرصد المقدس بإعتباره لاهوتا صراطيا يحد ويصادر حرية الإنسان ويكرس العبودية ويحجب لاهوت الرحمة والمحبة، فعملية التجديد تتمحور حول الإنسان والبحث في نمط العلاقة بين الله والإنسان هل هي مسدودة ومحدودة حتى تفضي إلى الإلحاد؟ وهي موجة عرفها الفكر من القدم وعرفت حيثيات تجديدية في الفكر المعاصر، وإن كانت تبدوا أنّها عملية تدين زائف أو فهم خاطئ فالشخص البشري بطبيعته ينفر ممن يستعبده، ويمقت من ينتهك كرامته ويكره من يمتهنه.

فكل شيء نمنحه بعدا قيميا يتجاوز وجودنا الأنطولوجي كبشر، فهو مقدس "فالإنسان يصنع مقدساته إنّه يختلقها ويلفقها، بل بمعنى أن تكوين أي فكرة عن ماهو مقدس إنما يخضع لفهم الإنسان ونظريته بشأن وجوده ووجود العالم الذي يحيا فيه "[3]،هنا نجد كل صور المقدس وتمثلاته تتغير حسب ثقافة الإنسان، ففضاء المقدس يعد مفتوحا وغير متناهي يتعدد بتعدد الثقافات والجغرافيا البشرية. "فالمقدس ظاهرة أبدية موجودة في الحياة البشرية، وإحدى البنى العميقة في الوعي

[1] _ المرجع نفسه،ص164.

[2] _ عبد الجبار الرفاعي،علم الكلام الجديد، وفلسفة الدين، مدخل لدراسة اللاهوت الجديد وجدل الدين والعلم، دار الهادي ط1، لبنان،2002، ،ص30

[3] _ عبد الجبار الرفاعي،انقاذ النزعة الانسانية في الدين، مركز دراسات فلسفة الدين،بغداد،ط2 ،2013،ص22

واللاوعي البشري، حتى المجتمعات شديدة العلمنة إذ صح التعبير لا يمكن أن تغادر المقدس، لأنّه موجود في بنيتها العميقة، ونجد دائما تعبيراته في حياتها"[1].

فالإنسان كائن متدين والدين ظاهرة واكبت التاريخ البشري من وجوده الأول، تظهر تجلياته ومظاهره في حياة الإنسان العملية، فيمثل الدين محرك الحياة مع مواكبة العقل البشري لكل تطورات العلم ومناهجه وقوانين الطبيعة وتفسيرها وإصطدام العقل بألغاز إستعصت على العقل فيعود بذلك إلى المقدس، يكتب مرسيا إلياد" (الإنسان غير الديني ينحدر من سلالة الإنسان الديني، وهو صنيعته أيضا، أراد ذلك أم لم يرد، وقد تكون إنطلاقا من أوضاع إتخذها أسلافه ...إن الإنسان الدنيوي، أراد ذلك أم لم يرد، لم يزل يحتفظ بأثار من سلوك الإنسان الديني، لكنها خالية من المعاني الدينية. مهما فعل فهو وارث،لا يستطيع أن يلغي ماضيه نهائيا مادام هو نفسه نتاجا لهذا الماضي ...الغالبية العظمى من الذين لا دين لهم ليسوا متحررين تماما من المسلك الديني، من اللاهوت والميثولوجيا نفهم أحيانا مثقلون بكل (لخبطة) سحرية ـ دينية، لكنها منحطة إلى درجة الكاريكاتور،ولهذا كان من الصعب التعرف عليها)"[2].

بالعودة الى التفكير الذي يسمح للإنسان إعتبار نفسه آنية متواجدة كما عبر عنها هيدغر على أنها النوة الأولى والمركزية "فابتداء من الآنية وحدها يمكن للانسان تحقيق البعد التاريخي لحقيقة وجوده"[3] من علاقة الإنسان بوجوده تستعيد الفلسفة معناها الأصلي وتحقق حاجة الإنسان للدين كحاجته لوجوده الأنطولوجي كما تنبثق من أعماقه حتى لو واجه كل الظواهر المناهضة للدين فهي موجات مؤقتة لطالما تضمحل، ففي القرن التاسع عشر تحدث فيورباخ وماركس ونيتشه وغيرهم عن غياب الإله أو موت الله حسب مقولة نيتشه، غير أن الله إنتقم لنفسه في القرن الحادي وعشرون، عاد الإيمان كما قال أندريه مالرو"(إن القرن الحادي والعشرين سوف يكون روحيا أو دينيا، أو أنه لن يكون)[4]، ربما يكون إنتهى التصور القروسطي للإله لكنه

[1]_ المرجع نفسه،ص22

[2]_ عبد الجبار الرفاعي ،انقاذ النزعة الانسانية في الدين،مجلة قضايا اسلامية معاصرة ،العدد 35_36،مركز دراسات فلسفة الدين،2008ص06.

[3]_ Martin Heidegger, de l essence de la vérité, traduit et introduction par alphonse de woelhes et walter biemel, nauwelarts, vrin, louvain, paris, 1948, p106

[4]_ عبد الجبار الرفاعي،انقاذ النزعة الانسانية في الدين،مجلة قضايا اسلامية معاصرة ، المرجع السابق ،ص6

لايزال حي وموجود في الفكر والفهم، مما يؤدي إلى الفقر الأنطولوجي للذات الإنسانية، بإعتبار الدين مشروع بشري يخلق كون مقدس للإنسان فهو أيضا يلزم بتحرير المقدس من الفهم المتوحش .

تحدث عبد الجبار الرفاعي عن الدين بإعتباره الحاجة الأبدية لإكتشاف معنى الحياة قال: "أريد هنا مقاربة الموضوع بنحو لا يدرس الدين بوصفه مؤسسة أو متموضعا في مؤسسة إجتماعية، وإنما من حيث هو ظاهرة تعبر عن أعمق متطلبات الوجود والكينونة الذاتية للشخص البشري، وهي رؤية تتبصر النظام الوجودي ومراتبه، ومرتبة الحق تعالى في سلم الوجود، وكيف أن وصالة والسفر إليه، إنما هو المنبع للحياة الروحية، والعلاقة به هي مصدر الإلتزام في الحياة الأخلاقية"[1]، كما نجد، الفهم الغير بريئ للدين يحدد ترحيل البروتستانتية الإسلامية للدين من الأنطولوجيا إلى الإيديولجيا، وحاجة الإنسان للأنطولوجيا أكثر من الإيويدولوجيا المسيسة، فيخرج الدين من حقله الطبيعي الخاص إلى حقل الوهم العام، هنا لا يتم إرتواء الإنسان بذاته الإيمانية من الوجود والكينونة التي تحدد معنى لحياته بقدرة الدين على إشباعها، فتتمثل عملية تغيير الذات جدلية بين الباطن والخارج ((الروح والجسد))، فالتجديد يطال المباحث التي لها علاقة بالذات الإنسانية لأن الإنسان كمبحث معرفي كان مغيبا تماما؛ فالتجديد لازم التطور الحضاري "مثلما تهمل ثقافتنا البعد الأنطولوجي للكائن البشري ومتطلباته العميقة، يضيع ذلك الكائن ويتخبط في متاهات"[2].

فالدين يعمل على إرواء الظمأ الأنطولوجي بغية ترحيل المعرفة الدينية التي أنتجها المتكلمون ضمن التراث الكلامي، فنفرق بين دين الأنطولوجيا ودين الإيدولوجيا التي تحدد ماهية المعرفة الدينية، والفرق بينهما ينتجه المتكلم ويحدده ضمن نسق كلامي؛ "فالمتكلم فيلسوف دين الإيديولوجيا بمعنى أنه يصوغ رؤية لله والإنسان والعالم وفهما للدين، تبنى وتشاد عليه مرتكزات الإيديولوجيا، الجماعات الإسلامية كافة تنسج شباكها في سياق رؤية المتكلم لله والإنسان والعالم، وشيئ من فتاوى الفقيه، ولا تقترب من ميراث سواهم، كالفيلسوف والعارف والمتصوف، لأن الفيلسوف

[1]_ عبد الجبار الرفاعي ،الايمان والتجربة الدينية ،مركز دراسات فلسفة الدين،بغداد،ط1 ،2015،ص18
[2]_ عبد الجبار الرفاعي ،الايمان والتجربة الدينية ،المرجع السابق،ص20

والعارف والمتصوف فيلسوف دين الأنطولوجيا "[1]، فالكلام الجديد يريد أن يلتحق بدين الأنطولوجيا[2] وينزع عنه رداء دين الأيديولوجيا[3] الذي رافقه منذ التاريخ الكلامي.

ففهم الدين يلامس العالم الجواني الباطني للمعرفة ويحقق بذلك الوجود البشري ما ينبثق عنه صورة لكينونة الإنسان في العالم البشري، "فالدين يحقق نوعين من المكاسب: الأول يوفر للإنسان في داخله الجنة، رغم كونه يسكن وسط جحيم المجتمع، والثاني أنه يعطينا القدرة على الصلاح الفردي في غمرة الفساد الإجتماعي"[4].هنا يرتبط الدين بصفته الإيمانية مع الواقع الذي يجسد حياة الإنسان فيكون وجود تقابلي للروح والجسد في دائرة المعرفة الدينية العملية المنبثقة عن الفهم الصحيح.

بإعتبار أن الدين يبحث في ماهو مقدس، فحاجة الإنسان للمعنى تعبر عن ظمئه الأنطولوجي كما يقول مارتن هايدغر:" إن الإنسان هو الكائن المسكون بمشكلة منح معنى للوجود"[5]،ففهم وجود الإنساني هو بالضرورة "فهم لوجود جميع الكائنات لذلك فإن الأنطولوجيا الأساسية يمكن أن تنبع فقط من الآخر ويجب البحث عنها في التحليل الوجودي للدزاين"[6] فمسألة الوجود تحقق تلك العلاقة العميقة بين الكينونة كذات مستقلة والبنية الوجودية كنظرية تبحث في جوهر هذا الكائن.

2- الايديولوجية الفكرية والوجود الإنساني:

حاجة الإنسان للمكون الأنطولوجي بإعتباره مكون عميق لوجود الكائن البشري وهو نداء الكينونة، الذي ينجز من خلاله الدين لوعوده إتجاه الإنسان ووظيفته إتجاه المجتمع، على مختلف المستويات سواء الثقافية أو السلوكية، فتديين يتحقق على مستويين (تدين روحاني أخلاقي الذي يضم حياة روحية ملهمة وحياة

[1] _ عبد الجبار الرفاعي ، الدين والظما الانطولوجي ،المرجع السابق ص174.

[2] _ دين الانطولوجيا :هدف تنشده وتنبعث وتتجدد به حياتنا ،بوصفه تفاعلا وانعتاقا وانفتاحا للعقل والقلب والروح ،على الله والانسان والعالم ،انظر عبد الجبار الرفاعي ،الدين والظما الانطولوجي ،ص174

[3] _ دين الايدولوجيا :يستهدفنا ،يستنزف ارواحنا ،يعطل حياتنا ويستحوذ علينا بوصفه انغلاقا وانصياعا ورضوخا واستبعادا للعقل والقلب والروح.انظر عبد الجبار الرفاعي ،الدين والظما الانطولوجي ،ص174.

[4] _ مصطفى لمليكيان ما يعد به علم الكلام الجديد، ضمن كتاب الدين وأسئلة الحداثة لعبد الجبار الرفاعي،مركز دراسات فلسفة الدين ،بغداد ط 1 ،2015ص117.

[5] _ عبد الجبار الرفاعي،انقاذ النزعة الانسانية في الدين، المرجع السابق،ص26.

[6] -Martin heidegger, être et temps, traduire par emmaneul martineau, édition numérique hors-commerce, France 1985, p 32

أخلاقية ملهمة وتذوق لجماليات العالم ومستوى الثاني وهو تدين ظاهري شكلي) ما يشكل لنا إلازدواجية، فالحديث عن الأديان بصفة عامة ودورها في بناء الذات الإنسانية والمجتمعات وغايتها الأساسية في بناء جسر بين الديني والدنيوي بين البشري والإلهي سواء عن طريق النص وفهمه أو عن طريق الإيمان والتجربة الدينية، هنا مابين العقل والروح كما عرفنا الأديان منذ قرون لم تبتعد عن مفاهيم الخاصة بالله التي جعلت الكلام لا يقتصر عن الأطر النمطية للفهم العقائدي فعلم العقائد أشبه بايديولوجيات العصر"[1].

فأنتجت بذلك لنا السلطة الأبوية للنص والدوغمائية للفهم والقروسطية للذات، أصبحت الذات الإنسانية وليدة سياجات متعصبة خالية من الروح مما أظهر كل صور الكفر والإلحاد، فجعلت العالم قدسيا بصورة أبدية أفقدت بذلك قدسية العقيدة "فيريد بذلك الدين التدخل والعمل في المجالات العامة سيغدو عقيما بنفس درجة الإيديولوجيات العلمانية التي يتقصد مناهضتها والقضاء عليها؛ عموما يمكن القول أنّ الأديان ورطت نفسها في أمور خارج صلاحيتها، أن من الناحية التاريخية، وأن من الجنبة النفسية ...، فالدين بهذه الصورة يخسر قدسيته ويتحول إلى شيئ عادي منزوع الهيبة إذا كانت ثمة معنوية وروحانية، فهي وليدة الروح وحسب وصنيعة مايسميه رودولف أوتو ((عرفان الروح)) أنّه عرفان لا شأن له بالقواعد الفقهية، ولا صلة له بحياتنا الشخصية "[2]،فتكتمل بذلك علاقة المقدس بالسياسي أي أنّه يعيش في حقبة الأنطولوجيا المهمشة.

فالمعتقد وفهمه يتيح لولادة كل التوجهات المختلفة، فعلم الكلام بإعتباره علم عقائدي يملك "المساهمة الكبرى في التمثيل العام للإيدولوجيا[3] الإسلامية، على

[1]_ حسن حنفي ، نحو علم كلام جديد تارخية علم الكلام ، ضمن كتاب ،علم الكلام الجديد، المرجع السابق،ص236

[2]_ داريوش شايغان ،الانطولوجيا المهمشة ،مجلة قضايا اسلامية معاصرة ،العدد 26،مركز دراسات فلسفة الدين،بغداد،2004 ص164.

[3]_ الايديولوجيا :وفق استخدامها الأصلي ،الايديولوجي هي علم الأفكار العام ،علم عناصرها وعلاقتها دست دي تريسي 1754_1836،رغم ان الاهتمام بالايديولوجيا بهذا المعنى ظل قائما ـ حيث إتسم أحيانا بصبغة أكثر قبلية ،واحيانا اخرى أكثر سوسيولوجية ـربما يتعين أكثر الاستخدامات أهمية في الفلسفة وعلم السياسية المعاصرين في دلالة أكثر قصرا وقيمية ،حيث تصير الى مجموعة من المعتقدات والقيم يتبناه فرد او جماعة لاسباب ليست ابستمولوجية ،مثال الايديولوجية البرجوزاية ،الايديولوجية القومية ،او الايديولوجية الجنسية ،وعادة مايشتمل الاستخدام القمي لهذا المصطلح على عنصرين اولا اسلةب بعينه في

أساس أن الإيديولوجيا هي الوجود الواعي للأمة، من حيث هي مجموعة الأفكار المبدئية العامة لكل جماعة معينة بشأن أصولها وأهدافها ومعاييرها وقيمها ومصالحها الحضارية"[1]؛ فالدين هو دائما إيديولوجيا من حيث نسق الفهم للمعتقد الذي ينتج عنه الفهم التعبوي الذي ينعدم فيه التفكير والسؤال.فالتراث موضوع التي يمثل أحد معوقات التي يجب إعادة قراءتها وبناءها حسب عملية التحديث لإخراجه من "العدمية التراثية"[2] وإحياء روحه فهو قالب لمادة خام وجب الحفر التاريخي فيها.

فالأديان تسعى لمناهضة الظلم والتسلط والإستبداد وعبر"عن لاهوت التحرير في القرن العشرين جماعة من رجال الدين والكنائس في أمريكا اللاتينية بعد أن عملوا على إكتشاف المضمون الإجتماعي الثوري للعقيدة وتوظيفها في مقاومة الإستعمار، وإعتمادها كمرجعية في النضال والتحرير، فنشأ لاهوت التحرير كإيديولوجية ثورية تحررية شعبية للجماهير، تربط بين الدين والثورة، والإيمان والعدالة، والله والشعب والعقائد والمطالب الإجتماعية، والوحي من ناحية والحرية والإخاء والمساواة من ناحية أخرى "[3].

الإيديولوجيا اليوم لها الدور نفسه لميثولوجيا التاريخ، فهي إيديولوجيا دوغمائية ترضي الروح الإنفعالية دون منطق عقلي ولا علمي ولا فلسفي،"فإنها ليست في الحقيقة علما ولا فلسفة ولا دينا"[4].

فدين الإيديولوجيا يضرب كل من يكذب مبادئه، "فهو يسخر حياتك وطاقتك ومواهبك لتخدمه ويفرض عليك حدوده وإطاره وأسيجته، التي إن تخطيتها يصادر

التفسير حيث يعزى سواد معتقدات وقيم بعينها (بدرجة كبيرة) الى دور غير ابستمولوجي تقوم به نسبة الى الافراد ...اما ثانيا فهو اسلوب بعينه في النقد يوظف في الارتياب في المعتقدات والقيم عبر طرح هذا النوع من التفسير الرمزي السوسيولوجي او المؤسس على مصالح لسواد تلك المعتقدات والقيم وهو تفسير يتميز بجهل المعتقدين أنفسهم اياه ، للمزيد أنظر ،تدهوندرتش دليل أكسفورد للفلسفة ،ترجمة نجيب الحصادي ،ج1،من أ الى ط، المكتب الوطني للبحث والتطوير ،ليبيا ،ص 129.المرجع السابق .

[1]_ يمنى طريف الخولي ،الطبعيات في علم الكلام ،(من الماضي الى المستقبل)، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1995 ،ص29.

[2]_ طيب تيزيني، من التراث الى الثورة ، دار ابن خلدون،بيروت،ط1 ،1976ص97.98.

[3]_ عبد الجبار الرفاعي،اختزال الدين في الايديولوجيا لاهوت التحرير عند علي شريعتي وحسن حنفي ،قضايا اسلامية معاصرة العدد ،50.49، مركز دراسات فلسفة الدين،بغداد،2012ص105.

[4]_داريوش شايغان ،مالثورة الدينية، المرجع السابق،ص217

عليك دنياك وآخرتك"[1]؛ وحاجة الإنسان اليوم غير ذلك فهو بحاجة لدين يخدمه ويمنح حرية التفكير لعقله دين يمحوا الكراهية والتطرف والتسلط يطهر الروح من الخطايا كما عرفه الرفاعي بدين الأنطولوجيا أي تصبح هناك صلة تواصل بين الإنسان والله والعالم، حيث ترتوي روحه من الظمأ بنور الحق، فدين الإيديولوجي فارغ من الأبعاد الإنسانية ومنطقه عنيد وإختزالي.

فمشروع عبد الجبار الرفاعي التحديثي يريد به إنتقال الفكر من الفكر التحريري إلى الفكر التحرري بمناهج إنسانية إجتماعية علمية ذات طابع عملي غير بعيد عن صورة الإنسان، ويحمل كينونة الذات الإنسانية دون نسيان العقل الإنساني في غياهب المعتقدات، وهي دعوة صريحة لتحرر العقل الدوغمائي نحو نزعة التفكير الحر أي إنتقال من إيديولوجيا إلى أنطولوجيا صورة الإنسان في الواقع، فلا يمكن أن نتحرر من قيود التاريخ والنص العقائدي المبني ظاهريا وباطنيا على الإيديولوجيا السياسية والفرق والطوائف إلا بالخلاص من صراطية التفكير نحو الفهم العقلاني وتدين العقلاني والتفكير الإنساني ما يشملها دين المحبة والجمال لا دين التقديس الفارغ من الإيمان ،فلا خلاص إلا بالخلاص من تديين الدنيوي.

فالرفاعي يشدد على ضرورة ترحيل "البروتستانتية الإسلامية للدين، من الأنطولوجيا إلى الإيديولوجيا، جعل الإنسان ضحية فهم للدين، يخرج الدين من حقله الخاص، ويقحمه في مخاضات ومغامرات، تصادر ذات الشخص البشري، وتوهمه بوعود دنيوية خلاصية، لا صلة للدين بها"[2].

فمأزق الإسلام اليوم هو مأزق أخلاقي عقلي روحي لا يملك أرضية خصبة للتغيير والخروج من سياجات الدوغمائية التي واكبت الفكر الإسلامي لقرون، فما نعيشه اليوم هو نتيجة طبيعية لغياب العقل والقلب والروح، وهذا ما أفضت إليه البروتستانتية الإسلامية في عملية تديين الدنيوي، هنا تكمن مهمة الدين بتلبية حاجات الكينونة البشرية العميقة المتمثلة في الفهم والتفكير أولا ثم الحياة الأخلاقية والثقافية.

فالإيديولوجيا هي"عقيدة تحدد الإتجاه الإجتماعي والوطني والطبقي للإنسان، وتفسر نظامه القيمي والإجتماعي، وشكل الحياة، والوضع المثالي للفرد والمجتمع،

[1]_ عبد الجبار الرفاعي ،الدين والظما الانطولوجي، المرجع السابق،ص117.
[2]_ عبد الجبار الرفاعي،الدين والظما الانطولوجي ،المرجع السابق،ص172.

والحياة الإنسانية بكل أبعاده"[1]، لكن ماهي حدود الإيديولوجيا ؟ يجيب عن ذلك على شريعتي: "الإيديولوجيا تهدي للإنسان ما تمنحه له الإمكانات التقنية تماما، مالتقنية إلا مجموعة الجهود الإنسانية الرامية إلى توظيف الطبيعة لتحطيم هيمنتها وجبرها، وفرض إحتياجاتنا عليها، الإيديولوجيا تقنية يستعين الإنسان بها وبالمعرفة لتوظيف التاريخ والمجتمع حسب ما يشاء"[2]، فهي تقنية بالنسبة لشريعتي وهي ما توضح تأثره بلاهوت التحرير في دعوتهم لتحويل الدين إلى إيديولوجيا مناهضة الإستعمار وتحرير الأرض وتنمية المجتمع وغيرها، من مشاغل اللاهوت الكلاسيكي، هذا ما نقده الرفاعي للإيديولوجيا شريعتي التي تحول المثقف إلى تغير العالم دون تفسيره وفهمه فهي هنا أداة لبناء مجتمع مغلق ومقلد.

فإنتقال الإسلام من ثقافة إلى إيديولوجيا يوضح تأثير شريعتي بتفسير ماركسي لبعض الآيات "فأسقط المادية التاريخية على القصص القرآني"[3]، ففسر المجتمع على طبقات متصارعة إعتقاديا وثقافيا وسياسيا، فالثورة تقوم على تناقض ديالتيكي، فيصبح فكر بلا مكان. فنحن بحاجة ماسة لعبور ميراث شريعتي، مثلما عبره وتجاوزه التفكير الديني، "وبحاجة أيضا لعبور التفكير الديني للمفكرين الإيديولوجيين من رواد البروتستانتية الإسلامية[4]، في عالم الإسلامي في القرنين الأخيرين، ذلك أن مجتمعاتنا مسكون بنحت الأصنام البشرية، فالزعيم السياسي أو غيره سرعان ما يتحول في الوجدان الشعبي إلى أسطورة خارقة للطبيعة البشرية، فيصاب بجنون العظمة، ويصدق أنه أضحى أسطورة وأنه الرجل الضرورة"[5]. فالتفكير الدوغمائي يولد

[1]_ عبد الجبار الرفاعي،انقاذ النزعة الانسانية في الدين، المرجع السابق،ص86

[2]_ المرجع نفسه،ص ص86_87.

[3]_ عبد الجبار الرفاعي،انقاذ النزعة الانسانية في الدين المرجع نفسه،ص88.

[4]_البروتستانتية الاسلامية ، يعني بها حركة الاصلاح الديني في الاسلام الحديث ،التي يمكن ان نؤرخ لها بالسيد جمال الدين الافغاني وان نواتها الجنينية ولدت في زمن ابعد من ذلك ،مع الشيخ رفاعة الطهطاوي ،صاحب تخليص الابريز في تلخيص باريز" فالبروتستانتية الاسلامية والمسيحية كلاهما تشتركان بانهاك الدين وافقاره ميتافيزيقا وخفض طاقته الروحية ،واهمال قيمه الاخلاقية والتشديد على مضمونه الدنيوي الارضي ،لكن البروتستانتية الاسلامية مختلفة عن المسيحية فالمسيحية حررت الدولة من الدين والاسلامية افشلت الدولة بالدين وسممت الدولة بالدين ،.انظر حوار الرفاعي مع رحيل دندش ، لا خلاص الا بالخلاص امن تديين الدنيوي واعادة الدين الى حقله الطبيعي ، صحيفة حربات ،24.2 ،2018 .

[5] _ عبد الجبار الرفاعي ،لا خلاص الا بالخلاص من (تدين الدنيوي) واعادة الدين الى حقله الطبيعي ،حوار مع عبد الجبار الرفاعي ،رحيل دندش، صحيفة حربات ،24.2 ،2018.

أصنام بشرية والجهل المقدس فيتحول الفكر إلى صنم ويكف عن التفكير في حين أن التفكير الديني الحديث والكلام الجديد مطالب بالإنتقال من الإيديولوجيا إلى الإبستمولوجيا وتحقيق وظيفة الأنطولوجية للدين.

فلاهوت التحرير عند كل من شريعتي وحسن حنفي، يختزل فيه الدين بالإيديولوجيا ويوضح وظيفة ومهمة الدين، فالإيديولوجيا "أشد إعاقة للعقل وهي الأكثر حضورا وتأثيرا في حياة مختلف المجتمعات وهي عادة ما تبدل أسماءها كل مرة وتتخذ أقنعة تتلون حسب المعطيات الفكرية والدينية والسياسية السائدة في المجتمع"[1]، فهي تحجب الحقيقة وتنتج الوهم، وتعطل العقل وتشيع البلاهة إنها يوتيوبيا الإيديولوجيا.

دعوة كل من المفكريين حسن حنفي وعلى شريعتي للإيديولوجيا بهدف أنّ الدين يحقق لتحقيق العدالة، وهو ما رفضه الرفاعي بقوله أنّه لا يمكن أن يكون بأدلجة الدين لأنّ الأدلجة تفسد الدين والدين يتمحور هدفه في مايفشل العقل، فأدلجة الدين يجعل من كل ماهو دنيوي مقدسا فيضيع المقدس ويضمحل الدنيوي ويختنق فضاء الحرية ويكف العقل عقلا، "الإيديولوجيا نسق مغلق يغدي الرأس بمصفوفة معتقدات ومفاهيم ومقولات نهائية، تعلن الحرب على أية فكرة لا تشبهها حتى تفضي إلى إنتاج نسخ متشابهة من البشر، وتجييش الجمهور على رأي واحد وموقف واحد وكأنها تتمثل قول فرعون ((قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيْلَ الرَّشَادْ[2]))"[3].

كل مشاريع التجديد تعمل على التخلص من الأدلجة الدين وإشاعة التقاليد وترسيخ الدوغمائية والتفكير المغلق، فهمها تدجيين ونمذجة الشخص البشري، فتغلق بذلك كل الأسئلة الميتافيزيقية والعلمية لأنه يتم تقويض الفكر بتقديم إجابات نهائية، فكر تعبوي مليء بالتراجيديا الدموية وهو ما أعابه الرفاعي على الشريعتي بقول "أن مشكلة شريعتي وغيره أنهم لا يبصرون سوى مايطفو على السطح من تمثلات الدين في الإجتماع البشري أنهم لا يبتعدون عن قشرة الدين، لا يتوغلون إلى طبقاته العميقة هذه القشرة تحجب عنهم إستبصار جوهر الدين وأبعاده القصية"[4]، يؤكد عبد الجبار

[1]_ عبد الجبار الرفاعي ،الدين والظما الانطولوجي المرجع السابق،ص210.
[2]_الآية 29،سورة غافر،القرآن الكريم.
[3]_ عبد الجبار الرفاعي ،الدين والظما الانطولوجي،المرجع نفسه ،ص ص 120،121.
[4]_ عبد الجبار الرفاعي ،الدين والظما الانطولوجي، المرجع نفسه،ص142.

الرفاعي على ضرورة معرفة الفكر الديني لجوهر الدين وبعده الأنطولوجي بدل الإيديولوجي وهي مهمة المتكلم المعاصر أو المجدد في قلب عملية التفكير من عملية عاطفية وأسلوب بلاغي يؤثر دون فهم إلى عملية عقلانية وعلمية تعطي تنائج متماثلة مع تمثلات الدين والعقل معا.

نجد في القسم الأول من كتاب "العقيدة إلى الثورة" للدكتور حسن حنفي الذي يتمحور حول لاهوت التحرير والذي يسرد في رؤيته لإعادة بناء علم الكلام وتجديده، ويعتبر الإيديولوجيا مظهر وتعبير إجتماعي للدين، أي إختزال الإنسان في بعد واحد، "تنتهي الأدلجة التي أنجزها شريعتي وحنفي إلى: دنيوية الدين بمعنى إهدار الطاقة الرمزية في الشعائر والطقوس والممارسات الدينية، وبالتالي إنهاك الدين وتفريغه من محتواه المعنوي إنّ المفاهيم الدينية في غاية الدقة، وإذا ما خرجت عن حدودها الخاصة فقدت قابلياتها وإمكاناتها "[1] تعطي لا تاريخانية الإيديولوجيا تحيل الى إيلية[2] سياسية محضة.

لم يكن علي شريعتي وحسن حنفي الوحيدين في دوعتهما وجهودها لإختزال الدين في الإيديولوجيا بل كانت منذ الأفغاني أدبيات الجماعة الإسلامية إلى يومنا تناظل من أجل تحقيق تأسيس دولة دينية، تدرك أن لا يتم إنجاز هذا الحلم إلى بأدلجة الدين والتراث.

الخاتمة:

أخيرا ،فالنظر التجديدي للفكر الديني الذي يعمل على إزالة التقليد والزيف الذي لازم الفكر منذ قرون سابقة وهو نتيجة طبيعية للفجوة الأساسية، فالإيديولوجيا إحدى صوره التي أنتجت فالإنفصال بين العقيدة والمعرفة، كما بين الدين والفلسفة، وهو الإنفصال الذي كان قد تسبب ـ بإعتبار قوة سلبية، وبالتالي قوة عدمية ـ في إنهيار رؤية الإنسان الأنطولوجية، أنها نمط فكري يحاول أن يلبى في أن واحد، وضمن إطار إختزالي، طاقة النفس الترميزية ومتطلبات العقل وهكذا، فإن الإيديولوجيا، بإعتبارها إطارا بنيويا، تصبح فكرا إختزاليا مؤسسا على تصعيد الحياة الغريزية، فهذا المنظور

[1] _عبد الجبار الرفاعي ،انقاذ النزعة الانسانية في الدين،المرجع السابق ،ص103.

[2] _ الإيلية : مدرسة فلسفية يونانية جعلت من الوجود ازليا ابديا ثابتا ،ولم تقبل سوى التغيير بالكم من دون التغيير بالكيف . انظر داريوش شايغان، مالثورة الدينية ،ص221.

يكشف عن أن للإيديولوجيا ثنائية النزعة بالمقارنة مع الفكر التقليدي، فليس لها أي مقابل في النظام الأنطولوجي.

قائمة المراجع:

القرآن الكريم

_ حسن حنفي ، نحو علم كلام جديد تارخية علم الكلام ، ضمن كتاب ،علم الكلام الجديد،

_ طيب تيزيني، من التراث الى الثورة ، دار ابن خلدون،بيروت،ط1 ،1976

_ يمنى طريف الخولي ،الطبعيات في علم الكلام (من الماضي الى المستقبل)، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1995.

_ مصطفى لمليكان ما يعد به علم الكلام الجديد، ضمن كتاب الدين وأسئلة الحداثة لعبد الجبار الرفاعي،مركز دراسات فلسفة الدين ،بغداد ط 1 ،2015.

_ عبد الجبار الرفاعي ،الايمان والتجربة الدينية ،مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد، ط1 ،2015.

_ عبد الجبار الرفاعي ،الدين والظما الانطولوجي، مركز دراسات فلسفة الدين، ط3، بغداد، 2018.

_عبد الجبار الرفاعي، الدين والإغتراب الميتافيزيقي ،مركز درسات فلسفة الدين،بغداد ،ط1 ،2018

_ عبد الجبار الرفاعي،انقاذ النزعة الانسانية في الدين، مركز دراسات فلسفة الدين،بغداد،ط2 ،2013.

_عبد الجبار الرفاعي، علم الكلام وفلسفة الدين، مدخل لدراسة اللاهوت الجديد وجدل الدين والعلم، دار الهادي ط1، لبنان،2002.

Martin Heidegger, de l essence de la vérité, traduit et introduction par alphonse de woelhes et walter biemel, nauwelarts, vrin, louvain, paris, 1948,

-Martin heidegger, être et temps, traduire par emmaneul martineau, édition numérique hors-commerce, France 1985,

_ داريوش شايغان ،الانطولوجيا المهمشة ،مجلة قضايا اسلامية معاصرة ،العدد 26،مركز دراسات فلسفة الدين،بغداد،2004.

_تدهوندرتش دليل أكسفورد للفلسفة ،ترجمة نجيب الحصادي ،ج1،من أ الى ط, المكتب الوطني للبحث والتطوير ،ليبيا

_ عبد الجبار الرفاعي،اختزال الدين في الايديولوجيا لاهوت التحرير عند علي شريعتي وحسن حنفي ،قضايا اسلامية معاصرة العدد ،50،49، مركز دراسات فلسفة الدين،بغداد،2012.

_ عبد الجبار الرفاعي ،لا خلاص الا بالخلاص من (تديين الدنيوي) واعادة الدين الى حقله الطبيعي ،حوار مع عبد الجبار الرفاعي ،رحيل دندش، صحيفة حريات ،24،2 ،2018

_ عبد الجبار الرفاعي ،انقاذ النزعة الانسانية في الدين،مجلة قضايا اسلامية معاصرة ،العدد 35_36،مركز دراسات فلسفة الدين،2008.